حديث الشهر

مع سلوى في مهب الريح

مؤلف محمود تيمور

يقدمه

محمد عبد الحليم عبد الله

لم يكن محمود تيمور موافقا على أن أقدم له هذا الحديث لأنه رئيس تحرير مجلة القصـــة • لكننى ذكرته بأنه سيكون غائبا عن مصر ••• رد الله غربته ••• سيكون فى أحد مستشفيات « برشلونة » فى اسبانيا لعلاج عينيه عندما ينشر هذا الحديث ، وعند ذلك وافقنى على ما اقترحته عليه •

كانت اجراءات سفره قد تمت مساء ذلك اليوم •• حين جلست أنتظر قدومه فى أحد صالونات نادى القصة • وجاء فى بذلته السوداء ذات الصدارى التقليدى • وسمعت وقع اقدامه فقمت لاستقباله ••

لم يكن يبدو عليه قلق المسافرين حينما جلسنا لنتحدث • ولم يبد أنه خائف من شىء • وأخذت أعلل هذه الظاهرة بينى وبين نفسى متسائلا : هل سبب هـذه الطمأنينة كثرة أسفاره حتى أصبحت المصاعب وفرقة الأهل والوطن « عادة » تكتم أنفاس الحنين ؟! لكن محمود تيمور لم يدعنى أستغرق فى تفكيرى كأنه أحس بما فى ضميرى ••• فأخذ يحدثنى عن رعاية الدولة للكتاب وأنه تحت ظل هذه الرعاية قد يسر له كل شىء ••• وسيعود أكثر قدرة على القراءة ••• فكأنما رعاية وطنه له قد جعلت كل غربة وطنا كريما •

وكانت رائحة القهوة تفوح فى الصالون وتيمور على كرسى عال على مقربة من النافذة ••• تلك التى أرى منها حدائق « جاردن سيتى » تظهر بوضوح وتغيب فى غموض كلما أضاء وانطفأ اعلان بأنوار (النيون) فوق احدى العمارات العالية •

كنت أتامل وداعة هـذا الرجل ••• التى لم تتخل عنه قط • يخيل الى انه عندما يغضب يـكون غضـبه وديعا ايضا ••• فطرة صافية تؤمن بالرحمة والحب والسلام • يحدثك دون أن يحملق فيك • واذا أحرجته تبسم •

انيق دائما فكأنما مظهره الخارجى صورة لنفسه الأنيقة •

ما رأيت شيئا فى هندامه مهملا قط ••• ترى ماذا كان فى شبابه •

لم تجعله سن السبعين ••• (وارجو ألا أكون مخطئا) ••• قليل الصبر ولا سريع الملل •

رأيت ذلك بنفسى فى رحلة قطعتها معه بالسيارة الى مدينة المنصورة لحضور مهرجان أدبى ٠

وكان تيمور يحمل معه (أناقته) فى حقائب كبيرة ٠٠٠ ربما خرج بعضنا مهمل الهندام أو غير حليق الذقن ٠٠٠ لكنه خرج من حجرته فى الصباح بنفس الهندام والأناقة ٠

يحسن الاستماع والمجاملة ٠ ويعز عليه أن يجرح حتى الذين يجرحونه ٠

اذا وثق أو أحب أو عطف زالت السدود بينه وبين من وثق فيه أو أحبه أو عطف عليه ٠

وكان بدء الحديث الأدبى بينى وبينه أن قلت له :

ـ اننى أشم منك دائما رائحة تولستوى ٠٠

عند ذلك فتح عينيه ونظر الى وقال مبتسما وقد اصطبغ وجهه بالحمرة :

ـ تولستوى ؟! ٠٠٠ آ ٠٠٠ لماذا ؟ ٠٠٠ على كل حال أظن أن فى هـذا شرفا ٠

قلت لمحمود تيمور :

ـ ان أهل الفكر أسرة واحدة يشرف بعضهم بالانتساب لبعض ٠٠ كلهم ينتمون لأب واحد ٠٠ هو الأدب ٠٠٠ هو البحث ـ بالنيابة عن الناس ـ عن مستقبل أكثر اشراقا ، وخصال أكثر ملاءمة لأن نعيش متجاورين فى سلام ٠

عندئذ حمل تيمور ذقنه على باطن راحته وأطرق فرأيت الوداعة الانسانية التى خلعت عليها السنون لونا من الوقار ٠٠٠ فتصور معى مزيجا من الوقار والوداعة ٠

ثم قال لى وهو شبه شارد :

ـ تولستوى !! ٠٠ اننى أحب هذا الرجل !

فأجبت :

ـ وأنا أنافسك فى حبه ٠ وعلى كل فهذا جميل ٠٠٠ مادمت أرى فيك روائح منه ٠ فكانتى أحببتك مرتين مرة فى صورتك الأصلية ومرة فى صورة الانسان الذى تشبهه ٠

ـ وما أحببت فى تولستوى ؟!

ـ أحببت الرجل الذى نادى بأن يأخذ كل انسان من الأرض ما يكفيه ٠٠٠ نعم يا سيدى وأنت تعرف هذه القصة ٠ ذا الملامح القوية والقلب الرقيق ٠ « الكونت » الذى خاصم القيصر من أجل الشعب والقيصر ابن عمه ، وكان ذا بطش وسلطان عظيمين ٠

لقد ولدت فى أسرة غنية ولكنك عشت مع الناس • أحببت البسطاء والفقراء والطيبين وكذلك فعل تولستوى •

وقد جعلنى هذا أبدأ بسؤالك عن قصة « سلوى فى مهب الريح » •

ـ مالها ؟

ـ عن الملابسات والحوادث التى كانت سببا فى ميلاد هذه القصة •

تأكدت أن محمود تيمور يتذكر أشياء بعيدة عن « سلوى » ••• نفس الأشياء الذى ذكرها طه حسين عن هذه القصة يوم حملها اليه البريد فى صيف ما وهو فى فرنسا • قال ذلك طه حسين فى خطاب ألقاه فى مجمع اللغة العربية فى سنة ١٩٥٠ حين رحب به عضوا جديدا• قال طه حسين عن قصة « سلوى » انها جعلته ينصرف تماما عما كان حريصا على قراءته من الأدب الفرنسى ليقرأها وقد قضى وقتا سعيدا فى قراءة الأدب العربى وهو فى فرنسا •

نعم • كان تيمور يتذكر • كانت وداعة وجهه تزداد اشراقا كلما أوغل فى الذكرى • ثم مالبث أن قال :

ـ لعل أحداث القسم الأول منها وقع فى رمل الاسكندرية أيام كنت أتردد على كازينو سان استيفانو فى صيف ١٩٣٠ ••• أيام شبابى •

وابتسم فى استحياء كمن يكتم شيئا فابتسمت مشجعا للذكرى أن تنساب نحو الاديب الكبير • قائلا له :

أعتقد أننا لسنا بصدد رصد حوادث شخصية دقيقة يا سيدى ولكن ••• الذى لا شك فيه أن هناك جزءا من حياة الكاتب يخص كل الناس •

فسارع مؤمنا :

ـ نعم نعم • اننى لا أدارى شيئا • والذى أريد أن أقوله فى صدق ووضوح ويقين هو أن « سلوى » هـــذه شخصية من الشخصيات التى قابلتهـا فى كازينو سان استيفانو فى ذلك الصيف •

وكنت أيامها ألتقى بعديد من الشخصيات منها من هو شعبى ومنها من هو غير شعبى ••• من تلك الطبقة المستعلية التى لم تعد موجودة والحمد لله فى مجتمعنا • لكننى احببت سلوى هذه ••

وعاد يبتسم وهو يشير بسبابته : أحببت سلوى بمعنى أنها ملكت على تفكيرى ••• اهتممت بأمرها •• ليس حبا بالمعنى المشهور ولكنه اهتمام بالشخصية والمصير • ولعلك تذكر أن سلوى هـذه فى القصة فتاة من الشعب انحرفت أمهـا فاحتضنها جـدها ••

قلت لتيمور :

ـ هل تسمح لى أن أقاطعك لبرهة قصيرة · ها أنت ذا تصور فتاة من الشعب احتضنها جدها واسمها سلوى وكانت أمها منحرفة · فنحن الآن أمام فتاة من الشعب وانحراف ثم احتضان ورعاية من مؤلف ولد فى بيت غنى وجاه ·

وهذا هو الذى جعلنى أشم رائحة تولستوى فى نادى القصة هذا المساء حتى أكاد أرى صورته على أحد الجدران وتولستوى يا سيدى صور فى احدى قصصه « الانحراف وفتاة من الشعب والاحتضان والرعاية وهو من هو ، أما الفتاة التى من الشعب فاسمها « ماسلوفا » يتيمة ولدت وتربت فى بيت عمتى بطل القصة ·· قصة « البعث » · وهناك فى القصر الريفى وقع اعتداء على « ماسلوفا » من نكليودوف الشاب الذى كان عند عماته · ولكن نكليودوف وجد نفسه ذات يوم يدافع عن هذه الفتاة ليخرجها من السجن لأنه كان أحد المحلفين فى قضية اتهمت « ماسلوفا » فيها بقتل تاجر من سيبريا وحكم عليها خطأ بالأشغال الشاقة ·

ان قلب الفنان لا يعرف الاستعلاء · قلب الفنان مهاد للبشرية · عش مفروش بالزغب · حتى ولو ولد الفنان ولا يملك أحد التحكم فى مولده ـ بين طبقة غنية أو مستعلية فماذا فعلت يا سيدى فى قصة سلوى دفاعا عنها ؟

قال تيمور :

ـ سلوى التى كانت تابعة لبنت زهيرى باشا والتى كانت تأكل فضلات طعامها وتلبس خليع ملابسها كان لابد لها فى هذا الوضع أن تحس بأن انسانيتها ليست فى وضعها الطبيعى · فالعدالة الاجتماعية شىء والصدقات شىء آخر وكلاهما له ظل نفسى وأثر اجتماعى مخالف · فلسنا نعجب اذا رأينا سلوى تحقد على بنت الباشا فكان اختطاف سلوى لزوج بنت الباشا نوعا من الاحتجاج على الوضع الاجتماعى الخالى من التكافؤ ·

وان كانت الحوادث الدموية فى قصة البعث لتولستوى تناسب ـ بلا شك ـ خياله وذكريات شبابه فان حوادث « سلوى فى مهب الريح تناسب بالضرورة خيالى وذكريات شبابى ·

ـ اقنعت ·

ـ عظيم !!

ففركت كفا بكف شأن من يتردد فى سؤال · انتبه الى محمود تيمور وفحصنى بعينيه الهادئتين وقال :

ـ أرى على وجهك شيئا تريد أن تخفيه ·

قلت :

ـ انا لا أعرف الكثير عن ذكريات طفولتك · كل علمى أنك ابن العالم الكبير أحمد تيمور ··· فكيف كنت فى ظل هذه الدوحة ·

وبدا تيمور وكأنه عاد طفلا فى رعاية أبيه · على وجهه أمارات براءة لا تخلو من مرارة ··· ربما كانت عميقة·

عندئذ عرفت سر القلب الذى تحدث عن حب الأبناء والأشياء وربما النساء

بتردد وحيرة • سر الذى تحدث عن الشفة الغليظة والبنات اللاهيات اللاعبات ببراءة المقدمات طعامهن للعصافير ••

عرفت أن تيمور افتقد أول امرأة فى الحياة يدور حولها القلب وتترعرع فى محرابها العواطف ، بيضاء قدسية كريمة ••• ثم ••• تتحول ••• الى حب آخر مع امرأة أخرى •• غيرها •• غير الأم • الأم •

فقد فقد تيمور أمه وهو ابن خمس سنوات • ما أفظع هذا !! وترمل أبوه وهو فى سن الثلاثين فتزوج « المكتبة » •

وحين يتزوج الرجل المرأة الثانية فانه على كل حال سيخاف منها على أولاده ولو بين حين وحين • سيفيق ليذكرهم • أما حين يتزوج الأرمل « مكتبة » فعليه العوض •

كان محمود تيمور فى حضانة المربيات • كان ـ ولا شك يتسلل الى والده وهو فى جناح المكتبة فى عين شمس أو عزبة قويسنا فيقف على مقربة منه خجلا لائذا بباب أو جدار ويحس به الأب لوهلة فيبتسم له وعندئذ لكى يخلو لنفسه يقدم له قبلة وقطعة من الشيكولاته يأخذها محمود ويخرج وقد ترك خلفه كل ما يريد • انه ما كان يريد الا والده • لكن والده مشغول ••• ولذلك فتش الابن عن شىء يشغله ومنذ شب صادق شقيقه محمد تيمور وجعله مرشدا له ، وسارا معا فى طريق الادب وكان محمد بالنسبة لمحمود الأخ الاكبر والصديق المجرب •

لكن ••• اظن أنها حياة لا تخلو من الحرمان • انها المائدة العظيمة ••• الحافلة بكل الوان الطعام لكنها مع الأسف خالية من « ملح الطعام » •

ولذلك فاننى أعلل الحزن المقنع الذى يشبه التفكير فى حياة محمود تيمور بسر النشأة الأولى • لم يكن فى حياته أم وتزوج أبوه بزوجة أب لا تقهرها نساء العالم ••• بالمكتبة ••

لم نكن نشعر بالوقت ونحن جالسان • أنا ومحمود تيمور ، شعرت أننا من مواليد عام واحد • نحمل ذكريات طفولة متشابهة ••• اندماج النفوس حين تصفو • عند ذلك سألته :

لقد عرضنا لتولستوى البطل الاشتراكى الذى اعتبره غاندى نبيه • فهل من الممكن أن تحدثنا بمناسبة تولستوى والاشتراكية وأعياد ثورتنا العربية عن معنى أدب الثورة ؟

كانت أنوار « النيون » فى هذه الوهلة تلقى وهجها على حدائق « جاردن سيتى » وكان محمود تيمور ينظر نحو لوحة زيتية على الحائط وكنت متأهبا لأن أكتب مايقول، فأجاب ببساطة تنفذ الى قلب سامعه :

ـ اسمع يا عبد الحليم ••• لقد رأيت ناسا يعيشون من ريع الألف فدان ورأيت آخرين معهم يعيشون من ريع (الصفر) ••• هذا شىء غير معقول • والقوانين الاشتراكية جعلتنا نعيش فى مجتمع العدل والكفاية

... نعم ... هذا جميل ... وكل كاتب يريد أن يعبر عن هذا المجتمع الجديد المطرد الازدهار لابد أن يذكر أنه كاتب . وهناك فرق بين القوانين والقصة بل هناك فرق بين القانون نفسه وروح القانون . فروح القانون يعرفها القاضى الذكى وحده وروح الحياة الاشتراكية فى الفن والأدب يعبر عنها الكاتب المبدع بطريقة تشبه تطبيق القاضى البارع لروح القانون .

حتما سيعبر الكتاب عن مجتمعنا الجديد لأن القضية بسيطة أشبه بمعادلة رياضية ذات نتيجة حتمية . كاتب . ومجتمع . وتعبير .

ومن هؤلاء الثلاثة يخرج العمل الأدبى مطابقا للمجتمع حاملا سمات الكاتب . ولا يمكن أن يتخلف العمل الأدبى الا اذا انعدم الكاتب ... وبما أن الكاتب موجود والمجتمع موجود فلابد من حدوث التعبير ... معادلة رياضية .

غير أن الناس يختلفون دائما حول درجة التعبير الأدبى ومدى مطابقته لظروف المجتمع . ومن حقهم أن يختلفوا لأن العمل الأدبى والفنى ليس فيه « كلمة واحدة » الكلمة الواحدة فى العلم فقط .

قلت لتيمور :

ـ هذا معقول . واحب أن أضيف اليه أن الناس يودون أن يكون الأدب فى قوة قائد الثورة . وأنا من صميم قلبى أود ذلك . لكن قائد الثورة يعطى الأدب مادة خاما ينسج منها روائعه على مدى طويل وحين يكون الأدب فى سرعة الثورة بحيث تسير الأحداث الثورية والأعمال الأدبية المصورة لها على خطين متوازين ـ حين يكون الأمر كذلك فان الأديب يصبح فى درجة كاتب التاريخ على الأكثر ، والأديب يقدم وثيقة والمؤرخ يقدم وثيقة غير أن هذه تخالف تلك . وثيقة الأديب مخلوقة وأصولها فى أرض المجتمع ووثيقة المؤرخ منقولة وأصولها فى أرض المجتمع .

ثم قلت لتيمور :

ـ أنت رائد من رواد القصة العربية ، كتبتها أيام كانت كتابة القصة عملا فى الدرجة الثانية بعد الشعر والمقالة . فهل من ذكريات عن هذه الفترة التاريخية ؟!

ـ حركة ريادة القصة على الأصول الفنية الجديدة بدأت عندنا حوالى سنة ١٩٢٠ على يد رواد منهم محمد تيمور وطاهر لاشين . وكان أبى يلتقى برواد القصة فى المكتبة السلفية عند محب الدين الخطيب ..

ثم أطرق تيمور قليلا ورفع رأسه وقهقه بالضحك فجأة . عجبت فقال دون أن أسأله :

ـ تسألنى لماذا أضحك . أضحك لأنك قد لا تصدق أن والدى لم يدخل نادى محمد على فى حياته .

قلت :

ـ لأنه كان مشغولا بأشياء جدية .

فقال تيمور :

ـ كان يفضل الجلوس مع الشيخ الطويل والشيخ الزرقانى على صالونات نادى محمد على . وتوسع فى شراء الكتب وكان يجلس الى كل كتاب ومعه قلمه ليترك آثارا على هوامشه . فضلا على ثلاثة أولاد هم : اسماعيل ومحمد ومحمود .

وكان مع محمد تيمور وطاهر لاشين حسين فوزى وابراهيم المصرى وخيرى سعيد .

كنا مشغولين بالقصة وكانت معدودة من سقط المتاع ... شيئا هينا لا قيمة له ، وأذكر أننى جلست مع أحد الأساتذة ودار بيننا حديث جرنا الى مجهوداتى الأدبية فقلت له ببساطة : اننى على وشك أن أخرج مجموعة قصصية جديدة ، فرد على ملاطفا خائفا أن يجرح شعورى قائلا : أعتقد أنه من الخير لك فى المستقبل أن تؤلف بحثا أو رسالة .

قلت لمحمود تيمور :

ـ أظن أن كل فن حديث دخل الينا عانى غربة وعانى رواده نفس الغربة . وهذا شىء طبيعى ، فقد كانت النظرة الى الممثل والممثلة والمغنى والمغنية فى أوائل هذا القرن شيئا مخالفا لما هى عليه الآن . وكذلك الصحافة حتى بالنسبة للرجال .

ان الأنواع الأدبيـــة تدافع عن نفسها فى وطنهـــا أمام كل نوع وافد وذلك لاعتبارات منها الوطنية ومنها المصلحة الشخصية . ثم ... ان هناك أنواعا أدبية تكون أكثر مناسبة لروح العصر وربما لطبيعة الفترة التى تحياها أمة من الأمم . فالشعر فى بعض البيئات قد يكون أروج من القصة .

ولعلنا نذكر تدهور الشعر العربى فى صدر الاســـلام حين انشغل المسلمون بالكتاب العظيم ... بالقرآن ... عن كل ماعداه ... وفى فترة الازدهار العباسى وتمام التزاوج بين الحضارتين العربية والفارسية بلغ الشعر أعلى قمة ، فلا غرابة اذن أن يقف الشعر والنثر فى خط دفاع مشترك للمحافظة على مجدهما أمام تسلل هذا النوع الأدبى الجديد .

ومن الغريب يا سيدى أن الشعر العربى فى العشرين الأولى من هذا القرن أباح لنفسه ما لم يبحه للقصة . فلم يكن غريبا أن يتغزل الشاعر ويقول مايشاء ولكن كاتب القصة ـ فى هذه الفترة ـ كان يحرم عليه مايباح للشاعر .

ضحك محمود تيمور فاستطردت :

ولعل ذلك من باب التعصب لأشيائنا ... فالشعر من أدبنا منذ التاريخ الأول فلا عيب عليه اذا ملك حريته وأكثر ... أما القصة ... فهى « بنت الجيران » .

قال محمود تيمور مبتسما :

ـ من طريف مايذكر أنه كان هناك مجلة اسمها « الضياء » لصاحبها المرحوم اليازجى . وكنت أنا صغير أقرأ هذه المجلة وكانت تنشر فى آخر صفحة بابا تحت عنوان « فكاهات » فماذا تظن هذه الفكاهات ؟

قلت : نكت أو طرف أدبية .

فقال تيمور :

ـ لا • بل كانت قصصا : تصور ••• وفى هذه الفكاهات قرأت شرلوك هولز مترجما •

لكن الذى يذكر بفخر وعرفان هو ماعمله المرحوم حافظ عوض فى جريدة (المؤيد) فقد كان يشجع القصة • ولما لم يجد قصصا عربية فانه كان ينشر قصصا مترجمة من النوع الذى كان القراء يعشقونه فى ذلك الوقت مثل قصص المغامرات والحب •

لكن جيل الرواد كان مؤمنا بفكرته • كانت معداتنا ضعيفة الا بعض أعمال محمد تيمور • كانت سفنا صغيرة والطريق جديدة ولا أحد يشجعنا • وهذا هو الجو الذى غرسنا فيه حديقة القصة العربية ••• تصور !!

وظللنا صمت • كنت أتذكر فيه ـ ولعله كان يفعل مثلى ـ كتاب القصة العرب الذين يعتز بهم الفن القصصى اليوم • وجعلنى أسأل نفسى هل ينفصل فضل الرواد حتى ولو كان عملا متواضعا جدا عن الأعمال الكبيرة التى يرثها من بعدهم • فوصلت الى أن عمل الرائد هو النواة الحقيقية للخلية الحية وأننا ان سكنا القمر يوما من الأيام فيجب أن تذكر الأعمال التى لم تنجح والتى نجحت فى المحاولات الأولى لارتياد الفضاء •

كان فى رأسى أسئلة كثيرة • كنت أشعر نحو تيمور بالتلمذة والصداقة والزمالة والأخوة • مع أنه أكبر منى فنا وسنا • وقرأت له بشوق وحب وأنا طالب صغير وموظف شاب •

وكنت فى هذه الأيام أعتقد أن تيمور يقفل دونه سبعة أبواب وأن لقاءه عسر حتى رأيته لأول مرة يمشى الهوينى فى حديقة المجمع اللغوى القديم قبل أن يكون عضوا فيه ووقفت من بعيد أتأمله • رأيته طيبا ••• رأيته رقيقا ••• لكننى لم أجرؤ على أن أسلم عليه • خفت يومئذ من شىء واحد هو : أن يسألنى عن اسمى !! فماذا أقول له ؟! ماذا يقول النكرة للمشهور ؟! فقنعت بالنظر اليه •

ورفعت نظرى اليه • كان لا يزال على كرسيه المرتفع فى نادى القصة والنافذة الى يمينى • والليل فى الخارج • وادع ساكن ••• وسماء شهر يونية تلمع بالنجوم، وحدائق « جاردن سيتى » تظهر فى وضوح وتغيب فى غموض كلما أضاء ثم انطفأ اعلان « النيون » الملون فوق احدى العمارات •

قلت لمحمود تيمور أخيرا :

ـ لابد أنك ستزور الأندلس •

فأجاب :

ـ تلك فرصة • فرصة عظيمة لى • بعد أن أنتهى من العملية بسلام سأرحل الى الجنوب وسأرى الأندلس والحضارة العربية ••• ومواقع أقدام طارق بن زياد التى لم يمحها الزمن •

فقلت لمحمود تيمور :

ـ ونحن ••• نحن سنرحل معك بقلوبنا ، انك ستكون فى وطنك هناك لأن وطنك ـ الذى يكرم الكتاب ـ قد كرمك • وسنكون معك ••• لأننا لن ننساك ••• وبالتالى لا تستطيع أن تنسانى ••• حتى تعود !!